الإمارة والزاوية

عباس رضوان*

مقدمة:

بعد نزول الحملة الفرنسية علي الجزائر بسيدي فرج في 14 جوان 1830م ، واستسلام الداي وتوقيعه المعاهدة في 05 جويلية 1830م، أصبحت البلاد تعيش حالة من الاضطراب "باستثناء قسنطينة" فوجدت نفسها فجأة أمام فراغ سياسي، وفي مواجهة خطر أجنبي داهم لاسيما الإقليم الغربي، الذي بات يعيش مشكلة إدارية وسياسية في غاية التعقيد، إلى جانب القبائل الكبيرة والقوية، التي كانت تمارس نفوذا في عهد الأتراك في بعض المدن مثل: معسكر، وتلمسان أين أصبح الإقليم عرضة للأطماع السياسية والعسكرية المتشابكة من كل جانب.

مما دفع بأهالي الإيالة وعلمائها إلى البحث عن الشخص الذي يسندون إليه أمور البلاد: ويبايعونه بالإمارة عليهم، وتتوفر فيه الشروط الضرورية ليقود الكفاح الشعبي، فوقع اختيارهم على السيد محي الدين والد الأمير، وهذا لما أبداه من شجاعة وحزم في معركة رأس العين، ومعركتي خنق النطاح الأولى والثانية بوهران عام 1832م[1]، إلى جانبه ابنه عبد القادر هو الآخر الذي ذع صيته وانتشر في الآفاق، في هذا الصدد يذكر لنا بن عودة المزاري في كتابه طلوع سعد السعود ".... حصل الكلام مع الشيخ السيد محي الدين والد الأمير من الأمة على أن يكون هو الأمير فأبي وقال لهم عليكم بابننا عبد القادر[2]، هو الموافق لكم في أمركم وهو الجدير"[3].

لقد أعرض محي الدين عن الإمارة ولكنه لم يعرض على الجهاد ولما عاود الأهالي بطرح الفكرة عليه، وألحوا وأصروا، اعتذر لهم حينئذ بكبر سنه، وعدم قدرته على ذلك الثقل الكبير، يذكر ابن عودة المزاري، عما أورده عن السيد الحاج أحمد بن عبد الرحمن البوشيخي ثم الشقراني في كتابه القول الأوسط في بعض أخبار ما حل بالمغرب الأوسط فيقول: "ولم يجدوا لذلك المنصب الجليل، والمقام الجزيل، إلا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر، رايس الملة والدين... السيد الحاج محي الدين... لكونه أهلا لها وأصلح وأولى بها وأنجح فامتنع منها وفزع، وأعرض عنها وجزع وما ذلك إلا لعظمتها عند الله وخطرها وشقوتها... وأشار بها إلى ولده الأمجد وطلعته الأسعد.. ناصر الملة والدين المخلص في أحواله لرب العالمين السيد عبد القادر بن محي الدين"[4]

اذن:

ـ كيف تم اختيار الامير عبد القادر لإمارة وقيادة المقاومة ؟

ـ وما علاقة القادرية بالطرق الصوفية الأخرى والاستعمار الفرنسي؟ وكيف أثرت هذه العلاقات على قيام وسير الدولة الجزائرية التي كان يسعى إلى ترسيخها الأمير عبد القادر؟

في 21 نوفمبر1832م، عقد أهل الإيالة وعلمائها اجتماعا مع محي الدين لهذه الغاية في سهول غريس وفاتحوه في الموضوع، وقد أصغى اليهم وأمعن التفكير فيما عرضوه عليه، واقتنع بأن قبول الأمر واجب عليه شرعا، حيث أنه مسموع الكلمة ونافذ الأمر في المنطقة[5]، ويذكر صاحب التحفة: "أن محي الدين استخار الله تعالى وقدم ولده للإمارة، لمدافعة أهل الشرك، متوكلا من نصره وتأييده على مالك الملوك.

وقد تباشر الناس لذلك لما رأوا من إقدام عبد القادر لزحف واقتحامه للصف بعد الصف وقد تمت مراسيم البيعة حسب صاحب التحفة في الثالث من شهر رجب الفرد سنة 1248هـ، الموافق لـ 27 نوفمبر 1832م، ووقع الأعيان والعلماء الذين شهدوا البيعة على الصك الذي سجلت فيه إثبات لشهادتهم على هذا الحدث التاريخي.[6]

وبعدما تمت المبايعة وجه الأمير ندائه إلى رؤساء القبائل دعاهم فيها إلى الوحدة، ونبذ الفرقة، ومحاربة من يثير لفوضى في البلاد، كما حثهم على الخضوع إلى نصوص وتعاليم كتاب الله والحكم بالعدل، وهذا كله من أجل طرد الكافر المحتل.[7]

يتضح أن بمجرد مبايعة لأمير عبد القادر يكون المجتمع السياسي الجزائري قد افتك السلطة من رؤساء القبائل، والأسر المحلية، ومن جهة أخرى تكون هذه البيعة تكريسا لسلطة تقليدية جزائرية آخذة شرعيتها من قدسية الشريعة ، ومن العرف السائد، وبهذا تصبح السلطة التقليدية ترتكز على خاصية القدسية للقوانين التي توارثت مع مرور الأزمان، فيصبح الحاكم بموجبها له الطاعة، وبناء على هذا، فإن السلطة التقليدية لسلفية الأميرية قد واجهت نوعين من السلطة الأولى تمثلت فيما يعرف بالسلطة الرمزية المشخصة في سلطة القائد، والنوع الثاني السلطة العقلانية التي تقوم على قوة القانون الوضعي العقلي، وهذه الأخيرة جاء بها المستعمر.

وبهذا فقد علت إرادة الدولة شرعا فوق إرادة الفرد والقبيلة والمستعمر، واتخذت من الدين الإسلامي، إيديولوجية تستمد منها العقيدة، ومن ثمة الرابطة بين أفراد أمة أو جماعة ليست رابطة المكان والدم، وإنما الدين وما يفرضه الواقع من مصير أخوي

وبهذا فإن الأمير قبل البيعة طلب بإرسال رسالة إلى الخليفة العثماني السلطان محمود الثاني، يخبره فيها بالأحداث، وما آلت إليه البلاد، بعد زوال سلطة الداي، أما بعد البيعة فقد أمر بإنصافه وحسن سيرته وأدبه وتواضعه. و أرسل بكتاب إلي سلطان المغرب يقول فيه "إلى أهل ناحيتنا هذا ما اتفقوا عليه أشراف وعلماء وأهل العقد والحل على ولايتنا وملازمته بيعتنا....لكننا توقفنا على نظر إجازتهم لذلك أوردكم إياه، لما وصله المكتوب أظهر السرور والفرح والحبور، ورد لنا الجواب، لأن أهل الوطن أصابوا وما غلطوا أو على الخير سقطوا والله يعينكم ويحفظكم والسلام"[9]

وبهذا قد اتخذ عبد القادر لقب الأمير من جانب اللياقة والدهاء بعد أن رفض لقب الخليفة، الذي كان يسمى به والده محي الدين من البداية 1831م عند توليه أمور الناحية، الذي اقترحه عليه الحشم وبني عامر ولكن بعد سنوات قليلة أي 1836 دخل الأمير تلمسان منتصرا وسط الأفواج المبايعة، فقبل لقب الخليفة تقديرا للسلطان[10].

يظهر ذلك واضحا في رسائله، وفي خطب الأعياد والجمعة، حيث كان يدعي لمولاي عبد الرحمان، وفي هذا يقول الأمير في إحدى الرسائل التي كتبها للسلطات المغربية "إننا كنا قديما في بلادنا مع كثرة جيوشنا وانتظام خزائننا بمدن أوطاننا نخطب لمن فاق مساجدنا في جمعتنا وفي أعيادنا بالدعاء لكم والإعلام بطاعتكم، وما ذرنا أحد عليكم مع أن سلطان الحرمين الشريفين مكة والمدينة هو المقدم شرعا"[11].

وهذا خير دليل على أن الأمير أراد لدولته علي أن تكون مطابقة لمبادئ الشريعة الإسلامية، والتي كانت تهدف إلي إقامة دولة عربية إسلامية تعمل على توحيد كلمة الأمة ولم شملها، إلى جانب الدفاع عن الملة المحمدية، وتنفيذ الأحكام الشرعية، ولأجل

هذا ركز الأمير مجهوده ومساعيه نحو تأسيس دولة جزائرية إسلامية، تنبثق عن إرادة شعبية، في الوقت الذي كانت فيه الدول الإسلامية، تعيش على السلطانية والحكم الموروث[12]، بينما دولة الأمير قامت عمي نظام الشورى[13]، معتمدتا على الشورى المعروفة عند السلف الصالح "مشورة العلماء والمشايخ"؛ وليس عن طريق الوراثة كما يزعم الكثير انه ورث السلطة عن شيخ الطريقة القادرية "لا وهو والده محي الدين.

لم يكن يعتبر الأمير السلطة أمرا اختياريا وشكليا، بل فرضتها اعتبارات غائية و ظروف عابرة. ولقد تنبأ إلى أن الشقاق والضعف والفساد، بدأ يسري في جسم الدولة العربية الإسلامية، يوم أن تخلى حكامها عن الشورى بمفهومها الإسلامي الصحيح؛ لهذا كانت لا تصدر آراءه وأحكامه إلا عنها[14]. خاصة في أمور الحرب والسلام والمصالحة ومن ذلك الاجتماع الشورى الذي جرى لإعلان اجهاد، ضد العدو، بعد اجتياز العدو الفرنسي أبواب الحديد في نوفمبر 1839م.

ولم يكتف الأمير بهذا، بل اعتمد على لشورى حتى من خارج الوطن، حيث استعان برجال العلم من الأزهر والزيتونة والقرويين وكبار الفقهاء، حرصا على ضبط أمور الدولة[15].

خصوصا وان العلاقات الداخلية لم تكن تنذر بالخير أين استطاع الاستعمار خرق صفوف الجزائريين وزرع الفوضى بين أبناء الوطن والمؤسسات الدينية منها الطرق الصوفية الكبرى التي كان لها دورا مهما في مسار تكوين الدولة الجزائرية وعلاقتها مع الاستعمار الفرنسي بصفة عامة والطريقة القادرية بصفة خاصة .

لعل أكثر أدوار الطرق الصوفية إنارة هو ما يظهر من خلال دورها السياسي

الأسرة تستند في حكمها إلى شيخ الطريقة الذي بدوره يعطي أوامره إلى أتباعه في سلوك الطريق الحق، أو الدخول في معركة مصيرية، ولكن يبقى إشكال في أن الطريقة القادرية لم تكن تستند إلى شيخ الطريقة الفعلي بالجزائر الذي هو الشيخ "عبد القادر الجيلاني" وإنما كانت ممثلة في هذه الفترة بالغرب الجزائري من طرف الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر بزاوية القيطنة وهذا ما يدفعنا إلى التمييز بين أسس الطريقة الدينية الروحية ومقوماتها الدنيوية المادية ضمن أسسها التنظيمية والاجتماعية، بحيث أن لكل طريقة منهجها الذي تقوم عليه حسب لويس رين "ليس هناك ما يؤدي بخضوع شيخ طريقة إلي شيخ طريقة أخرى، فكان كل مؤسس طريقة جديدة، يطبع مؤسسته بطابع خاص يميزها عن جارتها الأقدم منها أو الأحدث منها[16].

وانطلاقا مما قاله لويس رين"Louis Rin" سنحاول التعرف على موقف الطرق الصوفية من الاستعمار وموقف المقاومة الذي وقفته تجاه الصرق المعادية المقاومة والصديقة في آن واحد، خصوصا وأن شيوخ الزوايا كان لهم أثر كبير على أتباعهم في خوض الانتفاضات ضد سلطات "القايد المحلية ،والباي الجهوية ،والداي المركزية"، قبل دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، أمثال شيخ الطريقة الدرقاوية ابن الأعرش وموقفه من العثمانيين والاستعمار الفرنسي؛ وعلى ذلك فقد كانت حرب الأمير عبد القادر حسب سعد الله مؤسسة على مشروع دولة وطنية حديثة لم تقتصر على ولاء الجماعة القادرية وحدها بل شاركت فيها جماهير ذات انتماءات قبلية وطرقية متعددة جعل القضية تخرج عن نطاق الطريقة إلى النطاق الوطني[19].

ولعل هذا ما دفع سعد الله إلى اعتبار أن الأمير لم يقدم مقاومته باسم الطريقة القادرية إلا وهو خوفه من تهميش ومقاومة الطرق الأخرى وتمجيد القادرية ويكون

بذلك خطأ في حق الكثير من الطرق التي قدمت النفس والنفيس رغم أنها ارتكبت بعض الأخطاء في حق القضية الوطنية ولكن يرجع ذلك إلى سياسة كل طريقة ورؤيتها حول قضية قبول أو رفض الاستعمار وطريقة معاملته، وهذا ما أدى إلى ظهور صراع داخلي بين الطرق فيما بينها، وهذه النقطة كانت هدفا للاستمرار سياسة الاستعمار التي طبقها منذ دخوله وهي "سياسية فرق تسد".

لذا وسم موقف الطرق الصوفية بالتخاذل والتواطؤ مع المستعمر، والذي سنراه لاحقا، ولذلك يمكن تصنيف الطرق الصوفية انطلاقا من موقفها اتجاه الوجود الاستعماري، إلى طرق مقاومة للاستعمار وأخرى مساندة له على نهب خيرات البلاد واستعباد العباد مقابل مصالحهم الشخصية فكانت سياسة المستعمر في مواجهة الطرق الصوفية قائمة على كسر "وحدة الطريقة الخطيرة في نظرهم بجعلها تتفرع إلى فروع، وعدم تبعية فروعها إلى شيخ واحد "قائد" يصدر التعليمات في الحرب والسلم" مثل مصير الرحمانية والقادرية والدرقاوية"[20]، لأنهم كانوا يمثلون أكبر قوة دينية وقفت ضد الاستعمار الفرنسي وكذلك لكونها أكبر الطرق في الجزائر من حيث الأتباع والمريدين، ومن بين الطرق التي استعملتها فرنسا في إحداث الفجوة بين الطرق هو شراء الذمم، وتزويج بعض رجالها من فرنسيات[21].

وكذلك إغراء شيوخها بالمراكز الاجتماعية والمراتب الشرفية، مثلما جرى مع النجانية التي تحالفت مع الاستعمار حسب سعد الله ضد الأمير عبد القادر وساعدت الذوق دومال في تماسين، على احتلال بسكرة سنة 1844،[22] ووظفوا القادرية والرحمانية لتكون حائلا ضد السنوسية[23].

وهذا ما قصده لويس رين 'Louis Rin' في قوله "هذا ما يجعلنا نتحكم بسرعة في المواقف[24]، أي بمعنى هذه السياسة "فرق تسد" حسب عبد القادر بوعرفة "عاشت من أجل احتلال الجزائر واحتواء العقل واجتناب اللسان"[1]،وساهمت بالكثير في عملية تطوير سيطرة الاستعمار في الضغط على المقاومة بضربها بأيدي جزائرية وبنية قصد إظهار لشعب أن الأمير يريد السلطة واستعباد الشعب، والفرنسي جاء لتحليصه من هذا القيد ولكن ذلك لم يخالفها طويلا، وهذا ما سنراه باختصار من خلال تقييم علاقة كل طريقة بالمقاومة .

حسب تعبير دونوفو "إن طريقة بن عبد الرحمن هي حقيقة طريقة وطنية جزائرية خالصة، فقد ولدت وترعرعت في أحضان بلاد القبائل وشيوخها تكونوا بالجزائر[25]، وهذا ما جعل هذه الطريقة تختار مساندة الأمير في مقاومته حسب سعد الله لقد تحالفت الطريقتان على الجهاد ضد الاحتلال منذ 1830،[26] وخصوصا أن الأمير كان "يحلم بإقامة قومية عربية "Nationality Arabic' ويفكر في الإمكانيات التي تمكنه من التغلب على الأعداء الجدد[27]، لهذا كانت سياسته تعتمد على تقديم رجال الدين في الوظائف الإدارية والحربية إذ تم تعيين الحاج سيدي سعيد الذي كان من أتباع الرحمانية ممثلا له في متيجة منذ سنة 1250هـ/1835م وهو المرابط الشهير لمنطقة سباو، حيث اجتمع بالحاج محمد بن زعموم وهذا في 01/30 يوليو 1831م وان أهم عملياته، هجومه من منطقة سيدي الرزين على مزرعة المستوطنين وبقي الحاج السعدي هو محرك المقاومة والحسين بن زعموم ابن محمد هو القائد العسكري للطريقة[28]، فقد نجح الأمير في اكتساب ود مقدم هذه الطريقة حسب دونوفو لقد أراد عبد القادر أن اختياره لهذه الطريقة هو كسب تعاطف الشعبين لقد كان هذا

العامل الطبيعي الأول الذي يمكنه من التدخل في شؤونهم، وبإمكانه الاعتقاد بأن جميعهم في حزمة واحدة باسم الإيمان الموحد سيدفع بهم لمحاربة "الكفار"[29].

فعلا هذا ما حدث مع الحاج البشير الذي لم يكن محل إجماع الإخوان الرحمانيين خصوصا مع توليه منصب مقدم الزاوية مما استدعى تدخل الأمير عبد القادر لتقريب وجهات النظر وانتخاب الحاج البشير مقدما على الزاوية إلى غاية وفاته 1840.[30]

فلقد كان للأمير عبد القادر دورا هاما في توطيد العلاقات بين الإخوان الرحمانيين، لإدراكه ومعرفته الجيدة أن الواجب الوطني عند القبائل شعار يسيطر بالقوة على أفكارهم الدينية. ولما تعرضت الجزائر إلى العدوان الفرنسي كانت الطريقة الدرقاوية حديثة التكوين بالجزائر مع فروعها، ولكن رغم ذلك بادرة هذه الأخيرة إلى الدخول في الحرب ضد الفرنسيين إلى جانب الأمير عبد القادر بقيادة موسى الدرقاوي وعبد الرحمن الطوطي، وعدة بن غلام الله البوعبدلي الذي تقلد منصب القضاء بأمر من الأمير وحسن المصري شيخ المدنية في الأغواط وخليفة قويدر بن أحمد في نواحي المدية والمقدم عبد الرحمن التواتي في ناحية سيدي بلعباس[31].

ولكن رغم تجمع بعض قادة الزوايا الدرقاوية حول مساندتهم للمقاومة إلا أن الاستعمار الفرنسي رد على هذا الأخير بزرع الفتنة والتفرقة في وسط هذه الطريقة واستغلال العديد من مشايخها الذين اعتبروا العثمانيين أعداء لهم والفرنسيين هم الذين جاءوا لحمايتهم من طغيان العثمانيين، لحد قول فرانس فانون "فالقبائل تحارب إحداها الأخرى لعدم القدرة على محاربة العدو الحقيقي، وعليكم باعتبار السياسة الاستعمارية التي تذكي الخلافات فيما بينهم، وعندما يرفع الأخ سكينه في وجه أخيه

الضحايا التكفيرية لا تزيل تعطشهم إلى الدم، ولن يتوقفوا عن الزحف نحو رشاشات إلا إذا تواطؤوا معنا[32]".

فعلا فلقد تواطأ العديد من مشايخ الزوايا الدرقاوية والتجانية...مع الاستعمار لضرب الوحدة الوطنية والقضاء على المقاومة الشعبية عن طريق تقديم الولاء للاستعمار مثل ما حدث مع "محمد الهبري زمن ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي أيضا إذ أصبحت الزاوية الهبرية ملجأ للموالين لفرنسا"[33].

هذا لا يعني أن الدرقاويين وأتباعهم كانوا ضد المقاومة وإنما كانوا يمثلون مركز إزعاج حقيقي للعدو لأن شعار الدرقاوية الجهاد ضد الكافرين وهذا ما دفع بالفرنسيين إلى البحث عن ميكانزمات التي تسير وفقها تلك الطرق التي يلتف حولها العديد من المواطنين الأوفياء للدين والوطن حسب أبو القاسم سعد الله يختم "رين Louis Rin" حكمه على موقف الدرقاوين من الحكم الفرنسي هي أنهم ليسوا أنصارا للفرنسيين وليسوا أعداء لهم أيضا، إنهم قد رفضوا المناصب الإدارية ولكنهم قاموا بالوظائف الدينية من إمامة وإفتاء وقضاء، ولعل ذلك قياسا على ما فعله بعض أولائهم الذين لا يمكن أن يكونوا "احتياطيين" للفرنسيين يعتمدون عليهم في الملمات ولكن يمكن التعاون معهم في بث "الحضارة" التي ينشرها الفرنسيون في الجزائر[34].

رأى العدو الفرنسي في عداوة الدرقاويين للأتراك نقطة يمكن الاستفادة منها لضرب المقاومة وتغير التوجه السياسي للأمير الذي يعتبره دونوفو النقطة الحاسمة للقضاء على الدرقاوية في عقر دارها في قوله لازال سيدي عبد القادر بوطالب ابن أخ الأمير وأخوه سيدي مصطفى ابن محي الدين أوفياء للطريقة، يبديان تحفظهما من الأتراك كان يفضلان أن يكون مثلهما درقاويا حتى يتمكنا من مبايعته زعيما على

الدرقاوية لجمع الصفوف ضد المسحيين، كان تصرف عبد القادر من أول وهلة تصرف سياسي[35]، لم يريد أن يوقع بين الإخوة والتشكيك في دور الطريقة في المقاومة وإظهار عدم شرعية الإمارة والمبايعة بطريقة غير مباشرة إلا أن دونوفو أراد أن يظهره للعامة على أن الأمير "درويش" فقط في قوله لم يكن عبد القادر يتخذ أي قرار هام فيما يتعلق بمفاوضاته مع الفرنسيين أو إعلان حرب أو بناء أمصار جديدة أو تنقل قبائل أو جمع ضرائب... إلا ووضعه تحت ولاء حجبة البغدادية[36]، لقد جند العدو كل الوسائل لتفكيك العلاقة بين أتباع الطريقة الدرقاوية والأمير عبد القادر من اجل ضرب المقاومة في عقر دارها .

كما حدث مع العيساوية التي اعتبرها دونوفو وسيلة من وسائل الدعاية استخدمها الأمير ضدهم في قوله "كان شيوخ هذه الزاوية يمارسون تأثيرا كبيرا على قبائل لفليته ومن خلالهم كانوا دائما يوطدون علاقاتهم بالأمير عبد القادر، وكانت توكل للعيساوة الذين ينتقلون عبر الأسواق المهمة الدعائية في الجزائر[37]، كما انهم الفرنسيين شيوخ هذه الصريقة بالخروج عن الدين الإسلامي والزندقة والسحر نظرا لعدم تواطأ بعض المشايخ معهم لذا لجأت إلى تشين صورتها أمام العامة لنفور منها وقطع علاقتها بالمقاومة.

كما اعتبر الفرنسيون السنوسية خطرا عليهم، لما لها من أهمية قومية وسلامية، وما يربطها بالطرق الأخرى من الشيخية والقدرية والدرقاوية ولذلك أرادوا أن يستغلوا مشايخها لجعلها مطية يركبها الاستعمار لضرب الطرق الأخرى كما فعلوا مع التجانية، ولكن مبادئ السنوسية جعلتها تختلف عن تلك الطرق لجمعها بين نشر الدين

1842-1895م حسب عبد القادر شرشار عند ما تزعم أغا روسل مولاي الشيخ على المعارضة ضد الأمير عبد القادر استمال إليه محمد بن عبد الله فتعاون معه، ومن أجل ذلك منحه الفرنسيون لقب "السلطان" وعينوه خليفة على القبائل الغربية بالمنطقة غير أنه سرعان ما شعر بمضايقات الفرنسيين نظرا لما كانت تحوم حوله من شكوك، وحتى لا يثير الشكوك حوله اشترك في الحملة الفرنسية في معارك تارة ضد القوات المغربية[38]، ولكن تعتبر هذه الثورة بمثابة ثمرة من ثمار الحركة السنوسية ضد الاستعمار الفرنسي رغم تظاهرها بمساعدتها في معارك تارة إلا أنها عملت في سبيل تحقيق وحدة إسلامية وتجاوز دورها كطريقة صوفيه لتغدو حركة إسلامية شاملة.

أما عن موقف الطريقة الشيخية اعتبرها سعد الله من بين أوائل الطرق الصوفية التي تولت السلطة الادارية للفرنسيين، لأن الطرق الأخرى لم تقبل بالوظائف الإدارية إلا بعد تدجينها بالانقسام والتزويج بالفرنسيات والتجسس عليها ونحو ذلك فقد لعبوا دورا مزدوجا تارة يكونون في مقدمة الثائرين ضد الاحتلال والنظام الفرنسي وتارة يكونون خدما له وولاة يطبقون الأوامر الإدارية والتعليمات على أفضل ما يكون، كما انهم اعتذروا للأمير عبد القادر على عدم مساعدتهم له متضرعين بالفقر والعزلة فقبل ذلك[39].

هذا ما دفع "لويس رين""Louis Rin" الى ارجاع سبب ازدواج سياسة الطريقة الشيخية إلى طبيعة سياسة الفرنسيون معهم في تطبيق "سياسة فرق تسد"[40].

فعلا هذا ما قامت به الحكومة الفرنسية في احتلالها للجنوب والحد من سيطرة ولاة سيدي الشيخ الدينية والدنيوية على المنطقة وإرغامها على الانضواء تحت لواء السلطة الفرنسية بالجزائر لاسيما الفرع الشرقي التي حاولت فرنسا أن تجعل منه وسيلة

لتوسعها نحو الجنوب الغربي الكبير، حيث عينت سيدي حمزة ولد أبي بكر بعد مساومات ومشاورات لتعينه خلفية على الجنوب الجزائري سنة 1850 والذي قاد حملات عسكرية إلى جانب الفرنسيين في إخضاعهم للقبائل الثائرة كقبائل حميان الشفاعة القاطنة على الحدود المغربية الجزائرية في أفريل 1853، وحملة عسكرية أخرى ضد سلطان ورقلة[41]، فلقد كانت هذه الطريقة أداة استخدمتها فرنسا لضرب توسع المقاومة وذلك عن طريق تعيين أتباعها على رأسها الزاوية لإحكام قبضتها والسيطرة على الوضع.

مثلما حدث مع التجانيين يقول الحجوي "إن التجانية ليست كسائر الطرق، بدعة وضلالة في الإسلام، بل هي هدم صريح وضد عتيد للإسلام[42]، فهو يعاتب أتباع التجانية نظرا لما يحملونه من أفكار ومبادئ ضد العثمانيين، وعتبار الفرنسيين مرسلين إليهم من الله أي جنود الله لقول الحاج علي "حسب دونوفو" فتركوا إذن الفرنسيين يفعلون ما يريدونه إنه من فعل الإرادة الإلهية، فبرغم من بعدهم عن ملة محمد إلا أنهم سلكوا الطريق الحكيم الذي دون شك سيعود بالفائدة على المصلحة العامة[43].

فهذا التحذير لاشك أنه نابع من الحقد الدفين على السلطة العثمانية وأيضا مما تعرضت له الزاوية الأم عين ماضي على يد الأمير عبد القادر سنة 1838، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على عمق الجرح الذي سببه حصار عين ماضي ومدى استفادة العدو الفرنسي منه[44]، إذ يفسر دونوفو هذا الموقف لحد قوله، لقد أعلن الأمير الحاج عبد القادر سنة 1838 الحرب ضد سيدي محمد الصغير ليستنفد في

إلى الأمير بالرغم من أنه أصبح سيد على المدينة ولو لوقت قصير[45]، فالفرنسيون بالنسبة للتجانيين ما هم إلا نقمة إلهية على الأمير الذي سمح لنفسه بتدنيس قداسة التجاني.

ويقول أيضا لذا وجب على سيدي محمد الصغير التجاني ولأسباب عديدة التعامل مع الفرنسيين ومناصرة قضيتنا في سنة 1840 أجبرته الظروف إلى ضم قواته إلى المارشال فالي Valée لمحاربة الأمير عبد القادر بكل ما توفر لديه من قوة، فقد كان بين شيخ عين ماضي وشيخ غريس عداءا وأخذ بالثأر لا يعرف عنهما أحد أبدا"[46].

كما لعبت الطريقة الطيبية دورا هاما في مساندة الأمير عبد القادر في مقاومته للاستعمار الفرنسي كونها طريقة منشقة عن القادرية وكان لها انتشار واسع في غرب البلاد لقول دونوفو لقد تطاحن وتقاتل اللواء كيفينك Cavigniac أيام 22-23-24 من سبتمبر الفارط ضد إخوان مولاي الطيب ببلاد بني مشعل وبني زروس طريقته والخليفة الحالي، سيدي الحاج العربي، وفي نفس المكان تقابل السيد القديم اللواء لامورسيار la Morsiaire (1806-1865) أيام 12-13-14-15 من شهر أكتوبر 1840 بنفس الأشخاص وتبين أن إخوان مولاي الطيب بقيادة الأمير عبد القادر وتحت زعامة مولاي الشيخ هم الذين دمروا فيلق العقيد مونتياك Montagniac بضاحية سيدي إبراهيم، وقد قام نفس الإخوان أثناء فصل الشتاء الفارط بمحاولة الاستلاء على حمياتنا العسكرية ببرج سيدي بلعباس[47].

ولما وقفت الطريقة الطيبية إلى جانب الأمير أخذت السلطات الفرنسية إلى تغيير سياستها المعتادة سياسة فرق تسد وهذه المرة باستخدام إحدى الباحثات

الفرنسية وإدماجها ضمن قضايا الجوسسة لصالح الطريقة الطيبية وهي الباحثة إيزابيل إيبرهارت E-Eberhrdt ونسجوا حولها قصص غرامة تربطها مع مقدمي الطريقة الطيبية منهم سليمان هاني والشيخ الهاشمي شيخ الطريقة الطيبية إذ اعتبرتها وزارتا الداخلية والخارجية الفرنسية جاسوسة تعمل لحساب ألمانيا حينها أصبحت محطة اهتمام السياسة الفرنسية خصوصا المكتب العربي بمنطقة الوادي الذي رأى أن وجود إيزابيل مشبوه فأمرت السلطات بنقل سليمان هاني إلى باتنة وحاولت هي منعهم من ذلك حيث التجأت إلى الشيخ الهاشمي وإخوانه، وبعد ذلك قام أحد أتباع التجانية بضربها على رأسها ويقول أبو القاسم سعد الله "وحملت للعلاج في مستشفى الوادي على يد المكتب العربي نفسه وطبيبه الخاص"[48].

نفس الشيء وقع مع سي أحمد وأخوه بعده سي البشير اللذان تزوجا من أوربي بيكارد المولودة بتاريخ 12 يونيو 1849 في مدينة مونتانيي لوروا (Montigny-le-Roi)، كان والدها دركيا عمل بالجزائر في جوقة الشرف كما أنه كان من بين الجنود الذين استولوا على عاصمة الامير عبد القادر بن محي الدين "الزمالة" سنة 1943 ، حيث تمت مراسيم زواجها في الجزائر ببركة من الكنيسة سنة 1871 وأشرف على عقد قرانها مع سي أحمد المبشر الخطير شارل لافيجري[49]، وبسرعة استطاعت أوربي السيطرة على محيطها واتخذت لنفسها لقبا جديدا: "لا لا بمينة". وبدأت في تشييد قصرها الذي سيحمل اسمها قصرا قريبا من نبع الكوردون البعيد بحوالي 7 كيلومتر عن عين ماضي. وبعد وفاة الشيخ تزوجها، أخوه سي البشير، كما كان لها اسهامات كثيرة في مجال خدمة الزاوية

الواقع أن هذه الأحداث كانت من نسيج السلطات الفرنسية والتي كانت تريد بها القضاء على العلاقة بين الطريقتين التجانية والطيبية واستغلال إيزابيل كأداة لتفجير هذه العلاقة وكذلك استعمالها كجاسوسة لصالحهم فكانت دعايتهم حول هذه الأسرة كبيرة جدا وذلك قصد إبعادها عن كل الشكوك واستمالة أتباع الطيبية والوقوف بها لهذا لا تزال هذه الباحثة غامضة وسبب تواجدها بالمنطقة ، نفس الشيء بالنسبة إلى أوربي بيكارد فإنها خدمت الاستعمار أكثر من خدمتها للإسلام رغم اعتناقها له، وما سفر الشيخ الهاشمي إلى باريس إلا إثارة للعديد من الشكوك إثر هذه الأحداث الغريبة والغامضة.

خاتمة:

إن الطرق الصوفية التي كانت تخيف الاستعمار الفرنسي في بداية الأمر باعتبارها القوة الوحيدة الباقية للمسلمين الجزائريين، فشلت أمام سياسة الاستعمار التي شملت الدم واستعمال النساء كسلاح لقضاء على أتباع هذه الطرق فرأينا أن القادرية التي بدأت محاربة انتهت مهزومة هي وأتباعها من الطرق الأخرى كالدرقاوية، الطيبية والرحمانية، نتيجة لسياسة فرنسا القائمة على سياسة فرق تسد التي استعملتها في الطريقة الواحدة والعائلة الواحدة وبين مختلف الطرق والعائلات، قصد تفتيت شملهم والقضاء على كل الثورات الشعبية خصوصا مقاومة الأمير عبد القادر التي اعتبروها قائمة على أساس ديني رغم ادعاء بعضهم أنه كان رجل سياسة فقط، الفرنسيون خاضوا الحرب ضد الإسلام وأعوانه قبل خوضهم الحرب ضد دولة الأمير وأتباعه.

وأما عن الطريقة القدرية هي ليست طريقة صوفية جزائرية بالأساس مثل الرحمانية وإنما هي طريقة ذات أصول شرقية وكان حضورها بالجزائر حضور روحي غير فعلي مما جعلها عرضة وأداة استخدمها الاستعمار في ضرب الطرق الصوفية الأخرى والمقاومة، عن طريق تعيين مشايخ في كل منطقة مع نسبها إلى القادرية و بناء قبب وتثبيت مرابطين يدعون إلى الإسلام باسم الطريقة.

وما الأمير عبد القادر إلا رجل سياسة ودولة، من جهة وهو من أتباع ومريدي الطريقة القادرية من جهة أخرى ولكن حسب دراستنا هذه اتضح لنا أن الأمير عبد القادر لم يستغل نفوذ الطريقة القادرية في مقاومته ضد الاستعمار الفرنسي نظرا لمعرفته الجيدة بمشايخ الطرق في تلك المرحلة الذين كانت تطغى عليهم حب السلطة والتملك، خصوصا لما عرفوا أن الأمير يخطط إلى تكوين دولة وطنية جزائرية، وهذا ما كان يتنافى مع مصالح بعض المشايخ الذين أثبتوا الولاء إلى الاستعمار الفرنسي والوقوف ضد الأمير الذي اعتبروه أحد أتباع القادرية ويريد أن يحارب الاستعمار على حسابهم، وبذلك يكون قد أظهر القادرية وفوزها على جميع الطرق وهذا السبب الذي ظهر مع أبناء عمومته في معسكر أتباع الطريقة الدرقاوية أي أن كل طريقة أرادت أن تكون هي صاحبة الفضل على الشعب الجزائري وهذا ما رفضه الأمير وهو ظهور الخاصة على حساب الشعب الجزائري.

الهوامش:

1- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر 1994، ص 63.

2-عبد القادر بن محي الدين الحسني الجزائري: المولود يوم الجمعة 23 رجب 1222هـ الموافق لـ 25 سبتمبر 1807، بقرية القيطنة الواقعة بواد الحمام بالشمال الغربي من مدينة معسكر، من أسرة عريقة في العلم والسؤدد والصلاح، بيت سيدي قادة بن المختار الشهير بأوطان غريس، من القبيلة العربية الذائعة الصيت، المعروفة بالحشم. وكلمة الحشم تعني عرب من قبائل سليم وزغبة وعرفوا بهذا اللقب حينما اتصل بعض أسلافهم بخدمة بلاط الدولة الزيانية بتلمسان، و سموا بهذا الاسم كونهم خدم عبد المؤمن بن علي ودولة الموحدين.

3 - Charles Henry Cherchille, la vie d'Abdelkader Introduction, traduction et notes

4-Demichel, habart. 2ème. Alger 1974, p 46

5-إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص 42

6-"أرد إدوارد دونوفو" في كتابه "الإخوان" فكرة تبني الأمير عبد القادر للقادرية إذ يقول "أنه في سنة 1828 رحل الشاب عبد القادر ابن محي الدين، أمير العرب: إلى بغداد مع أبيه زائرا القبة المذهبة لسيدي عبد القادر الجيلاني، فدخل عليه ولي الله شاخ في صفة زنجي وبيده ثلاث برتقالات سائلا محي الدين "أين أمير الغرب؟ هاته البرتقالات من نصيبه؟ -"ليس من بيننا أميرا يجيب محي الدين"، وينسحب الزنجي

معلنا للزئرين بأن حكم الأتراك على وشك الانتهاء في الجزائر وأن الحاج عبد القادر ابن محي الدين سيكون أمير على عرب المغرب :إدوارد دونوفو، "الإخوان"، ترجمة كمال فلاني، دار الهدي عين مليلة الجزائر، 2003، ص 30

7-إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 42.

8- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، تحقيق ممدوح حقي، ط2، بيروت (لبنان)، دار اليقظة العربية، 1963، ص 162.

9- جمال قنان، نصوص سياسة جزائرية في القرن التاسع عشر (1830-1914)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص 44.

10-عميراوي أحميدة، موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي، عين مليلة (الجزائر)، دار الهدى للطباعة والنشر، 2004 ص 35-36.

11-الأميرة بديعة الحسني الجزائري، تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري، ودولته وهجرته، دمشق (سوريا)، دار الكفر، 2002، ص 26.

12-مولاي بلحميسي، ألقاب الأمير عبد القادر الرسمية، مجلة أخبار معسكر، عدد خاص بالأمير عبد القادر، 2002، ص 05.

13-León Roches, trente-deux ans à travers l'Islam, T1, (1884-1885), Paris, S.D, P 386.

14-عبد الله شريط، مشكلة الحكم الإسلامي في دولة الأمير عبد القادر ونظريا الشيخ بن باديس، مجلة الثقافية، العدد 75، ص 237.

15- عميراوي أحميدة، الطرق الصوفية والسياسة، مجلة المجلس الإسلامي الأعلى، [illegible] 1998، الجزائر، ص 218.

16- قسم التحرير، مقتطف من حياة الأمير عبد القادر ونضاله، مجلة الوحدة، العدد 150، 1983، الجزائر، ص 06-07

17-وداد الصيد، مكانة الأمير عبد القادر العلمية، من كتاب الدولة الجزائرية بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي، قسنطينة (الجزائر)، منشورات جامعة منتوري، 2002، ص 190

18-Rin Louis, marabouts et Khouon, étude sur l'islam en Algérie-Libraire, éditeur, Addhéjordan, Alger 1884, P 52

19- أبو القاسم سعد الله، "تاريخ الجزائر الثقافي"، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، ج4، الجزائر1998، ص 44

20-نفسه ص 31.

21-نفسه، ص 31.

22-نفسه، ص 216.

23-نفسه، ص 50

24-Rin Louis, op.cit., p 109.

25-عبد القادر بوعرفة "جهاد شعبي أم مقاومة"، أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني حول دور الزوايا المقاومة والثورة التحريرية منشورات وزارة المجاهدين الجزائر، 2007، ص 44.

26-إدوارد دونوفو، الإخوان، المرجع السابق، ص 72

27- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المصدر السابق، ص 141

28- إدوارد دونوفو، المرجع السابق، ص 73

29-شخوم سعد ، "دور الرحمانيين في المقاومة الشعبية دور الزوايا في نشر التعليم الأصلي"، أعمال الملتقى الوطني لأول والثاني حول دور الزوايا وإبان المقاومة والثورة التحريرية، المنعقد يومي 03-04 جوان 2006 بدار الثقافة ولاية تلمسان، منشورات المجاهدين الجزائر، 2007 ، ص 222- 223.

30-إدوارد دونوفو، المرجع السابق، ص 73

31-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المصدر السابق، ص 143

32-مرتاض عبد الحكيم ، "مساهمة الدرقاوية في الانتفاضات المسلحة بواسطة البلاد وغربها في بداية الاحتلال 1834 -1849 دور الزوايا في نشر التعليم الأصلي"، أعمال الملتقى الوطني لأول والثاني حول دور الزوايا وإبان المقاومة والثورة التحريرية، المنعقد يومي 03-04 جوان 2006 بدار الثقافة ولاية تلمسان، منشورات المجاهدين الجزائر، 2007 ، ص 237

33-جان بول سارتر، "مواقف مناهضة للاستعمار، ترجمة فطمة بلجرد، منشورات ANEP، الجزائر، 2007، ص 87

34-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المصدر السابق، ص 119

35- المصدر نفسه، ص 127

36-إدوارد دونوفو، المرجع السابق، ص 88

37- نفسه، ص 32.

38- نفسه ، ص 67

39-عبد الحكيم مرتاض المقال السابق، ص 175

40-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المصدر السابق، ص 105-106

41-Louis Rin, op, cit, p 349

42-مبحوت بودواية، "الزاوية الشيخية، دورها الديني والعسكري 1875-1908 أعمال الملتقى السابق الذكر، ص 131-132 وللمزيد من التفصيل حول وقائع مقاومة سيدي الشيخ يجب الرجوع إلى مذكرة الأستاذ مبحوث بوداوية.

43- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 340

44-إدوارد دونوفو، المرجع السابق، ص 82

45-بن يوسف تلمساني، موقف الزاوية التجانية من الاحتلال والمقاومة، دور الزوايا في نشر التعليم الأصلي"، أعمال الملتقى الوطني لأول والثاني حول دور الزوايا وإبان المقاومة والثورة التحريرية، المنعقد يومي 03-04 جوان 2006 بدار الثقافة ولاية تلمسان، منشورات المجاهدين الجزائر، 2007، ص 38

46-إدوارد دونوفو، المرجع السابق، ص 83

47-نفسه، ص 105

48- نفسه ، ص 41

49-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المصدر السابق، ص 53

50-عيسى منافع، فرنسية تسيطر على الطريقة التجانية، http://www.dd-sunnah.net/forum/showthread ص7